جراح المحبة

لاوسكار ويلد

ولد اوسكار ويلد في دبلن سنة ١٨٥٤ من أبوين كانا على جانب عظيم من رفعة الشأن . واشتهرت أمُّهُ اللادي ويلد بالقصص الارلندية التي كتبتها وطبعت في عدة مجلدات . تخرّج اوسكار في كلية دبلن وأكمل تحصيل العلوم العالية في جامعة اكسفورد . وكان شاعراً مجيداً وكاتباً بليغاً . فأعجب القرّاء بمطالعة قصائده التي طُبعت في ديوانه سنة ١٨٨١ . ومال بعد ذلك الى تأليف الروايات التمثيلية وكتابة المقالات الادبية والقصص والاقاصيص . فاجاد فيها كلّها إجادة اذاعت صيتهُ بين جميع قرّاء اللغة الانكليزية . ومن اقاصيصه « جراح المحبة » الآتية وعنوانها في الاصل « الجبّار المستأثر » اي الحبّ لنفسه :

القصة

اعتاد الاولاد ، كل يوم بعد الظهر في اثناء رجوعهم من المدرسة ، ان يذهبوا الى حديقة الجبّار حيث يطيب لهم اللهو واللعب

وكانت هذه الحديقة روضة فيحاء غنّاء حافلة بكل ما يُقرّ النواظر ويسرّ الخواطر . وقد فُرشت ارضها ببساط عشب شديد الخضرة والنضرة مرصّع بجواهر الازهار والرياحين على اختلاف انواعها والوانها . وبين ادواحها الوارفة الظلال والطيّبة الثمار اثنتا عشرة شجرة دُرّاق [خوخ] تلبس في الربيع مطرف زهر انيق بديع وتخرج في الخريف ثمراً حلواً لذيذاً . ومما زاد هذه الحديقة حسناً وجمالاً أنّ الطيور ألفت اشجارها فكانت لا تبرح مقيمةً فيها تتبارى في الشدو والتغريد والفصون تحتها تتمايل مصفقة لها والاولاد ينشنون آذانهم بسماع تغاريدها ويطفرون من شدة الطرب ويرقصون ويقولون بعضهم لبعض « ما اشدّ ابتهاجنا وسرورنا في هذا المكان »

وكان الجبار صاحب الحديقة والقصر المجاور لها مسافراً لطيّة بعيدة . وفي غيابه هذه المدة الطويلة خلا للاولاد جوّ النزهة في الحديقة فكانوا يأتونها عصر كل يوم ويسرحون فيها ويمرحون ويتمتعون ما شاؤوا من طيب النفوس وقرّة العيون . ولما

عاد من طيشه نظر فرأى الاولاد يلعبون في الحديقة. فاستشاط غيظاً وصاح بهم صيحة السخط قائلاً لهم: — « ماذا تفعلون هنا ؟ » . ولما سمع الاولاد صوته الاجش يهدر كالرعد القاصف ولّوا الادبار وركنوا الى الفرار خليعين مذعورين . وشفع انتهاره لهم بالبلاغ الآتي : « ان هذه الحديقة حديقتي . وتلك حقيقة لا يصعب فهمها على أحد . وليس لانسان غيري ان يجوس خلالها ويتمل حسنها وجمالها »

وما ابطأ ان بنى حولها سوراً عالياً وكتب على بابها هذا الانذار : — « من يحاول دخول هذه الحديقة يستهدف لاشد عقاب . ولقد أعذر من أنذر » . وكان هذا المارد الجبار مثلاً مضروباً في شدة الاستئثار. لا يحب غير نفسه ولا يشعر باقل شيء من العطف على أحد من ابناء جنسه

وبعمله هذا أصبح أولئك الاولاد محرومين لذة التمتع باللهو واللعب . فقد حاولوا ان يلعبوا على قارعة الطريق ولكن حال دون بغيتهم هذه ما لقوه في الطريق من تراكم الغبار وكثرة الحجارة وشدة الوعورة . فكانوا كل يوم بعد خروجهم من المدرسة يمرّون بالحديقة ويطوفون حول سورها الرفيع ويذكرون عهد تمتعهم باللعب فيها بالشوق والحنين بل بالتهد والانين ، قائلين بعضهم لبعض « ما كان أسعدنا في ذلك الحين ! »

وانقضى فصل الشتاء وبدت تباشير الربيع في البلاد كلها بزقزقة الاطيار وظهور اوراق الاشجار وابتسام ثغور الازهار . ما عدا حديقة العملاق الطاغية فان الشتاء ظل فيها شديد الوطأة وراسخ القدم لم تهش الطيور الى التغريد فيها لان الاولاد ليسوا هناك . وعرا اشجارها ثغور وخمول فما ازهرت ولا اورقت. واتفق ان زهرة جميلة أخرجت رأسها من كمها ولما رأت الانذار رثت لحالة الاولاد ولما لبثت ان عادت الى الهجوع في كمها مستأنفة نومها الثاني. واخذ السرور كل مأخذ من الثلج والصقيع فطالما تمسا بما كان وهنا من شدة الابتهاج قائلين « نسي الربيع هذه الحديقة او تناسانا وسنبقى فيها راتعين على مدار السنة » . وفرش الثلج بساطه الكثيف الابيض على الكلا فغطاه ونثر الجمد حبّاته الفضية على اغصان الاشجار . ودعوا ريح الشمال الصرصر فلبّت دعوتها وهبّت هبوباً عنيفاً أناخ على الحديقة بكلاكل القر والزمهرير ثم اهابت بالبرد فظل ثلثة ايام متوالية يصب انصاباً غزيراً على سطح القصر وجدرانه حتى حطم زجاج نوافذه وشرفاته وطاف حول الحديقة يُباري ريح الشمال في العيث والافساد وتحميل الجبار ما لا يطاق من صنوف الاعنات والارهاق

وطال عليه الانتظار من يوم الى يوم وهو يعلّل نفسهُ بتدوم فصل الربيع والتخلّص من صبارّة البَرد وقرس الزمهرير حتى عيل صبرهُ أو كاد فوقف في نافذة احدى الغرف واطلّ على الحديقة فرآها تُقاسي الامرّين من شدّة فتك الثلج والصقيع والريح الصرصر والبَرد فقال : — « لا أدري لماذا ابطأ الربيع هذه السنة ؟ ولا بدَّ من مجيئهِ عن قريب . فصبراً يا حديقتي صبراً انَّ بعد العسر يسراً »

ولكن الربيع لم يزر حديقتهُ قط . وهذا الصيف حذوهُ فصدّ عنها معرضاً. وخلع الخريف على كل حديقةٍ حلل النهار السجدية ولم يستثنِ من هذا الانعام الاَّ حديقة الجبّار قائلاً « انهُ شديد الاثرة والجشع ». فلم يبرح الشتاء مخيّماً عليها وظلت مسرحاً وملعباً للبَرد والرياح والثلج والجد

وفي صباح يوم حدث ان الجبار ، وهو باقٍ مضطجعاً في سريرهِ ، سمع ايقاعاً رخيماً جميلاً . فشاقهُ هذا الصوت العذب المطرب وظنَّ ان فرقة الموسيقى الملكية مجتازة من ناحية الحديقة . ولم يكن ذلك الصوت سوى زقزقة عصفور خارج النافذة . ولكنهُ إذ كان قد مضى عليهِ وقت طويل لم يسمع فيهِ طارّاً يغرّد في حديقتهِ عدَّ الزقزقة التي طرقت اذنيهِ اجمل ايقاع موسيقي في العالم. وعندئذٍ انقطع تهطال البَرد وسكن هبوب الريح وعبق القصر برائحةٍ طيّبة النشر . فنهض الجبار من فورهِ واطلَّ من النافذة وهو يقول : — « لابدَّ ان يكون الربيع قد جاء »

فماذا رأى ؟

رأى اغرب منظر لم يخطر قط ببالهِ ولا ببال احدٍ من الناس . فان الاولاد كانوا لشدة شوقهم الى دخول الحديقة قد استخفوا بالوعيد والتهديد وتقفت لهم الحيلة بان عالجوا اضعف موضع في السور حتى نقبوهُ وانسلوا الى الحديقة وتفرقوا تحت اشجارها ولم يقع نظرهُ على شجرة الاَّ رأى ولداً متفيّئاً في ظلالها . ومما زادهُ دهشة انهُ شاهد الادواح كلها حانيةً على الاولاد « حنوَّ المرضعات على الفطيم » ولم تلبث ان اخرجت ازهارها من الاكام فبدت طيباً للنفس وقرة للنظر ومدت اغصانها الميلاء لاحتضان ملائكة في صورة بشر ! وتسابقت أسراب الطيور من كل صوب وجلست على الاغصان المتدلاة فوق رؤوس الاولاد واسمعت في الشدو والانشاد باصوات تطرب الجماد وعمَّ الربيع جهات الحديقة الاَّ زاوية منها ظلَّ الشتاء مخيماً عليها . وفي هذه الزاوية القصوى وقف ولد صغير لم يستطع لشدة قصرهِ ان يصل يديهِ الى اغصان الشجرة فوقهُ . فكان

يروح ويجيء موغلاً في العويل والبكاء والشجرة نفسها مغشّاة بالثلج والصقيع وريح الشمال تهبّ فوقها هبوباً شديداً . ثم حنت الشجرة اغصانها وقالت لهُ بانطف لهجة وارق نغمة : « هيّا هيّا ايها الولد الصغير تسلق الاغصان واصعد اليّ » فمدّ يديه متطاولاً ومحاولاً بلوغ الاغصان المتدلاة : فوقهُ فاعياهُ ذلك

رأى الجبار هذا كلهُ فذاب قلبهُ اسىً وانياعاً . وقال « لله ما اعظم غباوتي وحماقتي واشدّ جشعي واستئثاري ! الآن علمتُ لماذا تسد الريح تطيبتي وصدّ عن قصري وحديقتي . واني لآسف اشدّ الاسف على غلاظتي وقساوة قلبي . وسأبدأ الآن بالتكفير عن ذنبي العظيم فأبادر الى رفع ذلك الولد الصغير المسكين الى ذروة الشجرة ثم اهدم سور الحديقة واجعلها الى الابد وقفاً شائعاً على الاولاد يسرحون فيها ويلعبون ويتنعمون ما شاؤوا من اسباب المسرة والابتهاج »

قال هذا وخفّ نازلاً الى الحديقة . فلما رآهُ الاولاد فرّوا منحورين مرتاعين وعلى ازرهم ذهب الربيع وخلفهُ الشتاء ! ولم يبق منهم في الحديقة سوى ذلك الولد الصغير لان عينيه كانتا مغرورقتين بالدموع فلم يرَ الجبّار عند دخوله . وكان قد جاءهُ يسترق الخطى . فاحتضنهُ برفق ولطف ورفعهُ الى الشجرة . ومن فورها أخرجت اوراقها وازهارها وجاءتها الطيور تغرّد على اغانيها ومدّ الولد ذراعيه وطوّق بهما عنق الجبّار وقبّلهُ . ولما رأى بقية الاولاد ما حدث وتيقنوا ان الجبّار ارعوى عن شرّه وطغيانه رجعوا الى الحديقة ورجع معهم الربيع بازهاره واطياره . فرحّب الجبّارُ بهم هاشّاً باشّاً وقال لهم : « هذه حديقتكم ايها الاولاد الاعزّاء . لا ينازعكم فيها احد من الآن فصاعداً ولكم ان تدخلوها وتلعبوا فيها متى شئتم على السعة والرحب » . ثم عمد الى فأس وأعملها في السور فدكّهُ الى أساسه . واجتاز الناس امام الحديقة فاستوقف انظارهم هذا التغير المفاجئ الذي طرأ عليها اذ ابصروا سورها مهدوماً والجبار يروح ويجيء بين الاولاد وقد اباح لهم التمتّع باجمل حديقة في العالم . فكانوا يقفون مبهوتين مدهوشين وقد أعجزهم الاعجاب عما استوفتهُ هذه الروضة الغناء من اسباب الحسن والرواء واتفق رأيهم على انّ جمال منظر الاولاد الصغار فاق بروعته وبهائه كلّ ما ازدانت به من الاشجار والازهار والاطيار !!

واتفق ان ذلك اليوم كان عيد عطلة عند الاولاد فقضوهُ في الحديقة . وفي المساء ذهبوا الى الجبار يودعونهُ فسألهم : — « اين رفيقكم الولد الصغير الذي وضعتهُ في

الشجرة ؟ فاني لا اراهُ معكم » . وكان الجبار قد احبَّهُ على الخصوص متأثراً من تقبيله لهُ . فاجابوهُ قائلين انهم لا يعلمون اين يقيم ولم يروهُ من قبل . فاغتمَّ الجبار واعتراهُ التعلج حبس لسانهُ عن الكلام

وكان الاولاد يأتون عصر كل يوم الى الحديقة حيث يوافيهم الجبار ويشاركهم في اللهو واللعب ولكنهُ لم يرَ بينهم الولد الصغير الذي احبهُ ومع اهتمامهِ بملاطفتهم كان فؤادهُ يصبو شوقاً الى صديقهِ الصغير ويقول في نفسهِ « ليت عيني تراهُ »

وتوالت السنون وطعن الجبار في السن وخارت قواهُ فاصبح غير قادر على مشاركة الاولاد في اللعب . فكان يجلس على كرسي كبير يراقبهم في العابهم ويعجب بجمال حديقتهِ . ويقول : — « فيها كثير من الازهار والرياحين الجميلة المنظر والذكية الرائحة ولكن الاولاد اجمل ازهارها كلها »

وفي صباح يوم من ايام الشتاء استيقظ الجبار وبعد ما لبس ثيابهُ وقف في النافذة واطلَّ منها على الحديقة . وكانت افكارهُ الآن قد تغيرت من جهة الشتاء فعاد لا يشعر باقلَّ بغض او كراهية لهُ لانهُ علم يقيناً أن الشتاء عبارة عن ربيع راقد في حضن الطبيعة والازاهير ناعمة في مضاجع الراحة . ثم مسح عينيهِ بيدهِ مدهوشاً مبهوتاً وامعن في الشخوص والتفرّس لانهُ لاح لهُ منظر عجيب غريب . ففي زاوية الحديقة القصوى شاهد شجرة مزدانة بازهار ناصعة البياض فائقة البهاء ومن اغصانها السجدية تتدلى ثمار لجينيَّة والولد الصغير الذي احبهُ واقع تحتها فطار اليهِ محمولاً على اجنحة الشوق . وباسرع من لمح البصر اجتاز الحديقة حتى دنا منهُ . ولما نظر اليهِ اخذتهُ سورة الحنق فصاح مزمجراً : — « من ذا الذي اقدم على اصابتك بهذه الجراح ؟ » لانهُ ابصر ندوباً [آثار جراح] في باطن كفيهِ وقدميهِ وكرّر سؤالهُ لهُ قائلاً « من ذا الذي اقدم على اصابتك بهذه الجراح ؟ اخبرني باسمهِ لاروي غليل حسامي من دمهِ » فاجابهُ الولد :

« انها جراح المحبَّة ! »

فاخذت الجبار رهبة شديدة وجثا امام الولد وسألهُ : « من انت ؟ »

فاجابهُ الولد باسماً : « لقد اذنت لي في ان العب في حديقتك . واليوم تصحبني الى حديقتي التي هي جنة النعيم »

وفي عصر ذلك اليوم جاء الاولاد الى الحديقة فوجدوا الجبار ملقى ميتاً تحت تلك الشجرة ومكفناً بالازهار البيضاء

ترجمة : اسعد خليل داغر

الرأس تحري بعد تتويجه امبراطوراً يستقبل احد الممثلين السياسيين الاوربيين

مقتطف دسمبر ١٩٢٨
امام الصفحة ٤١٧